الفصل الثالث

الحضارة الإنسانية ومقوماتها

obeikandl.com

obeikandl.com

obeikandl.com

الفصل الثالث

الحضارة الإنسانية ، ومقوماتها

مفهوم الحضارة

يعرِّف ول ديورانت الحضارة فيقول : " الحضارة نظام اجتماعي يعين الإنسان على الزيادة من إنتاجه الثقافي، وإنما تتألف الحضارة من عناصر أربعة: الموارد الاقتصادية، والنظم السياسية، والتقاليد الخلقية، ومتابعة العلوم والفنون؛ وهي تبدأ حيث ينتهي الاضطراب والقلق، لأنه إذا ما أمِنَ الإنسان من الخوف، تحررت في نفسه دوافع التطلع وعوامل الإبداع والإنشاء، وبعدئذ لا تنفك الحوافز الطبيعية تستنهضه للمضي في طريقه إلى فهم الحياة وازدهارها . (١)

وانتهى كثير من علماء الحضارة إلى أن كلمة حضارة تعني كل ما نجح الإنسان في إنتاجه ماديّاً أو عقليّاً نتيجةً لتفاعل الجماعة مع البيئة التي تعيش فيها . ويطلق البعض على النتائج المادية كلمة مَدَنيَّة ، وعلى النتائج العقلية كلمة ثقافة . وتعتبر الحياة الدينيَّة ، والسياسيَّة ، والاقتصاديَّة ، والفكريَّة لأي بلد بمثابة مظاهر لحضارته وتقدمه في سائر المجالات . (٢)

---

(1) ول ديورانت " قصة الحضارة " ج١ ص ١٣ الهيئة المصرية العامة للكتاب .

(2) د. علي رضوان " مصر القديمة ، بلد التجربة والخبرة والحكم والعبرة " ص ١ مطابع الأهرام التجارية – قليوب .

مقومات الحضارة

يشترط علماء الحضارة عاملين رئيسيين لنشأة أي حضارة :

العامل الأول : المقومات الطبيعية التي تتمثل في :

١- أحواض الأنهار الكبرى كالنيل في مصر ، ودجلة والفرات في العراق ، والسند في الهند ...

٢- المناخ وهو من أكثر العوامل الطبيعية تأثيراً في حياة الإنسان وفي تقدمه ، فلابد من توفر مناخاً معتدلاً ، وشمساً مشرقة ، وسماءً صافيةً ، وهواءً عليلاً ، ورياحاً لا بالعاصفة ولا بالساكنة ، واختلافاً في حرارة فصول السنة .

٣- الموقع الذي يمكنها من الاتصال بالعالم الخارجي والتفاعل معه والتَّأثُر به والتأْثير فيه .

٤- الحدود الآمنة من العدوان الخارجي .

٥- الثروات المعدنية من حديد ونحاس وذهب ...، والصخور كالجرانيت والرخام... والأحجار الكريمة كالماس والعقيق ...

العامل الثاني : المقومات البشرية وفي السمات التي تميز الشعوب المتحضرة والتي تمكنهم من استخدام المقومات الطبيعية أحسن استخدام ومن أهم هذه السمات: الفطنة والذكاء ،والجد والاجتهاد ، والتضحية والفداء ، والإخلاص والإتقان ، والتعاون والإيثار...

وأن هذه العوامل قد توفرت جميعها في مصر القديمة لذا تمكنوا من إنشاء أول حضارة عرفها التاريخ فقد كانت مصر قبل أن يسكنها المصريون القدماء في حالة بدائية ليس فيها من مظاهر المدنية أو الحضارة شيء ، وقد تعجب كيف تحولت هذه

obeikandl.com

البلاد من هذه الحالة البدائية إلى ما هو مشهور عنها من مظاهر الحضارة الفرعونية القديمة ؟ والجواب عن هذا ، هو أن هذا التحول العظيم يرجع إلى عاملين رئيسيين :

أولاً : أن مصر مع ما كانت عليه في العصور القديمة من حالة بريَّة إلا أنها كانت تحتوي على المقومات الأساسية اللازمة لقيام حضارة عظيمة (نهر النيل ، المناخ المعتدل ، الموقع المتميز ، الحدود الآمنة ، الثروات المعدنية)، ولم يكن ينقصها إلا الجهد الإنسان وتفكيره لإقامة هذه الحضارة .

ثانياً : أن قدماء المصريين ، الذين استوطنوا هذه البلاد ، كانوا على جانب كبير من الفطنة والجد والاجتهاد ، وقد استخدموا هذه الميزات في التغلب على الطبيعة ، فأقاموا حضارتهم العظيمة على مسرح البريَّة والتوحش ، وبذلك اجتمعت في مصر المقومات الطبيعية والمقومات البشرية مما هو ضروري لقيام أي حضارة . (١)

والحقيقة أن مقومات الحضارة : الطبيعية منها والبشرية غير كافية وحدها لإنشاء حضارة وهي تفسير نظري حدسي لنشأة الحضارة المصرية القديمة أول حضارة عرفتها البشرية كما سيأتي بيانه في الصفحات التالية في هذا الفصل . إن الحضارة بمعناها الحقيقي – وليست المَدَنيَّة أو العمران أو الثقافية – لابد أن يتوفر فيها جانبان :

١– دين سماوي (عقيدة ، وعبادة ، وشريعة ، وأخلاق) .

٢– إبداع إنساني : علمي (علوم : إنسانية ، وطبيعية ، ورياضية ، وفلكية ...) وتِقَنِي (اختراعات متطورة) ومادي (تشييد وبناء ...) وفني (أدب ، ورسم ، ونحت ، وموسيقى ، وتصوير) وبدني (رياضة : فروسية ، رمي ، سباحة ، عدو، مصارعة ..) .

(١) د. علي رضوان " مصر القديمة ، بلد التجربة والخبرة والحكم والعبرة " ص ٢ مرجع سابق .

فالحضارة إذن لابد أن تشبع جميع كيان الإنسان روحيّاً (عقيدة وعبادة) وعقليّاً (علوم ومعارف) وقلبيّاً (فنون وآداب) وإنسانيّاً (مكارم في الأخلاق ، واستقامة في السلوك) وجسديّاً (صحة ونشاط ، وخلو من الأمراض) كما لابد أن تكون هادية لغيرها ، ناشرة لخيرها ، محافظة على توازن الإنسان والكون ولم تكتمل هذه العناصر مجتمعة إلا في الحضارة المصرية القديمة والحضارة الإسلامية الوسيطة ." (١)

الحضارة ليست قوة عسكرية فقط كما يفهم البعض ، فالقوة العسكرية قد تُفْلح في غزو بلد أو قهر أمة لكن لا يُكْتب لها الخلود أبداً فعندما تضعف هذه القوة أو تصحو الأمم المغلوبة من رقدتها فإن القضاء المبرم هو النتيجة الحتمية لها وتذهب غير مأسوف عليها مصحوبة باللعنات كما حدث مع الهكسوس والفرس والتتار والعثمانيين وغيرهم .

والعلم وحده لن يصنع حضارة إذا لم تكن هناك قوة تحميه فكثيراً ما كانت البلاد المُتَخَلِّفة تقهر الأمم الْمُتَحِّضرة حدث هذا مع الهكسوس والفراعنة ، ومع الرومان واليونان ، ومع التتار والمسلمين ، ومع الصليبيين والمسلمين .

لأن العلم قديماً لم يحدث تغيراً جوهريّاً ولا فارقاً نوعيّاً في أدوات الحرب فكان كلا الطرفيين المتصارعين يستخدم نفس الأدوات القتالية : السيف والدرع والرمح والقوس وكانت الفروق بين هذه الأدوات طفيفة لا تحسم به معركة كما كانوا جميعاً يركبون الخيول والدواب (٢) إنما الذي كان يحسم المعركة هو الشجاعة في القتال ، ووحدة الهدف ، والاستبسال في تحقيقه ، والتضحية من أجله وليس شرطاً أن يكون هدفاً ساميّاً أو غاية شريفة إنما كان الهدف في كثير من الأحيان هو الطمع والرغبة في السيطرة والاستيلاء على ما في يد الغير وبسط النفوذ وتوسيع الملك ...

---

(1) " ميزان الحق بين العلمانية اللادينية والسلفية اللاأصولية " للمؤلف ص ٣٠٩ ، ٣١٠ مكتبة مدبولي .
(2) ركب الفرس الأفيال في معركة القادسية وكانت صدمة كبيرة للمسلمين عانوا منها الكثير لكن بفضل الإيمان الراسخ والعزيمة الصادقة التي لا تقل تمكنوا من قهر الأفيال ومن عليها .

لكن مع الثورة الصناعية وتطوير آلات القتال : طائرات وصواريخ ومدافع ودبابات ، وقنابل ذرية ، وأقمار صناعية... وتطورها بصفة مستمرة جعل الحرب مختلفة فلم تعد الشجاعة كافية ولم يعد العدد ذا بال ولم تعد البطولة لها قيمة تذكر فقذيفة من مدفع كفيلة بأن تدك حصناً بمن فيه من أبطال شجعان وفوارس لا يشق لهم غبار . وقنبلة ذرية واحدة تجعل مدناً أثراً بعد عين .

والعلم – المادي – والقوة لن يصنعا حضارة قد يصنعا تقدماً علميّاً وتكنولوجيا ، يغزو البلاد ويذل العباد ، قد يحقق التقدم العلمي والتكنولوجي مكاسب مادية ومغانم اقتصادية لكنه أبداً لن يحقق السعادة ولا الأمن فإن لم يقم العلم على دين صحيح فإنه لن يصنع إنساناً سويّاً ولن يحدث حضارة خالدة . وهذا هو حال الإنسان في الغرب المتقدم .

والحضارة كالإنسان تمر بمراحل : جنين ، ميلاد ، طفولة ، مراهقة ، شباب ، هرم ، شيخوخة ، احتضار ، موت ، تحلل .

أُسُس الحضارات جميعها التي ظهرت على الأرض أسس دينية النشأة علَّمها الله تعالى أنبياءه ورسله الذين راحوا يبنون هذه الحضارة ، ويشيدون بناءها وهذا ما يفسر لنا حيرة علماء الحضارة وفلاسفة التاريخ إزاء نشأة الحضارة وتطورها ، وإليك ملخصاً لنظريات المؤرخين في هذا الصدد وتعليقنا عليها .

نظريات المؤرخين في فلسفة التاريخ

أولا : النظرة الدينية (غير الإسلامية)

تفترض النظرة الدينية وجود قوة عظمى هي المشيئة أو القدرة الإلهية التي تحدد مصائر الأفراد والشعوب ، إذ أن الآلهة تبعاً لتلك النظرة كان لها دور المَشرِّع والقاضي ففي عصر البرونز تصورت الشعوب آلهتها في صورة الإنسان الصانع الذي يملك بيديه سلطة قوية إلى الحد الذي تخلق معها قانوناً يُسيِّر شئون البشر ، وهكذا

اعتقد كثير من فلاسفة اليونان القديمة ، وتاريخ كهذا ينصح الحكام بكيفية كسب إرضاء الآلهة أو على الأقل يوحي بالخضوع للإرادة المقدسة .

ويتفق منهج تاريخ الكنيسة المسيحية مع هذا المبدأ السابق ، ولكنه بصورة أعمق إذ تعتبر حركة التاريخ الحقَّة ، هي خطة لخلاص العالم موضوعة سَلَفاً وبالتالي تكون مهمة المؤرِّخ هي تتبع خطوات تنفيذها ، ويعد القديس أوغسطين من أبرز الممثلين لذلك المنهج الصوفي داخل الحضارة المسيحية " . (1)

وهذا المنهج لنظام التاريخ وتطوره فيه حق وباطل فالحق فيه أن لهذا الكون إلهاً خلقَهُ وأبدَعَهُ ، وخَلَقَ الإنسانَ وشرَّعَ له ، وسوف يحاسبه على عمله .

﴿ يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ النَّاسُ أَشْتَاتاً لِّيُرَوْا أَعْمَالَهُمْ * فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْراً يَرَهُ * وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرّاً يَرَهُ ﴾ (الزلزلة : ٦-٨)

فهذا حقٌّ أما أن الإنسان مُسَيَّر ولا حيلة له فيما يفعل فهذا باطل فالله تعالى جعل الإنسان في هذه الدنيا مختاراً .

﴿ وَقُلِ الْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ فَمَن شَاء فَلْيُؤْمِن وَمَن شَاء فَلْيَكْفُرْ ﴾ (الكهف : ٢٩)

ولم يجبر الله تعالى أحداً على فعل شيء .

﴿ وَلَوْ شَاء رَبُّكَ لآمَنَ مَن فِي الأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا أَفَأَنتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُواْ مُؤْمِنِينَ ﴾ (يونس : ٩٩)

كما أن الخضوع لله ليس عملاً سلبيّاً كما ترى هذه النظرية إنما الخضوع لله معناه القيام برسالته وهي إخلاص العبادة لله وفق ما شرع وتعمير كونه بالعلم النافع والعمل الصالح ، وعدم الإخلال بالميزان الإلهي الذي خلق الكون به .

﴿ وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ وَلا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ ﴾ (الرحمن : ٩)

(1) نيقين جمعة علم الدين " فلسفة التاريخ عند أرنولد توينبي " الهيئة المصرية العامة للكتاب . ص ٥

obeikandi.com

وأن القيام بمنهج الله تعالى يحقق رقيّاً وتقدماً وسعادة في الدنيا والآخرة .

﴿ أُوْلَئِكَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ مِن ذُرِّيَّةِ آدَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ وَمِن ذُرِّيَّةِ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْرَائِيلَ وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَاجْتَبَيْنَا ﴾ (مريم : ٥٨)

وأن الخروج عن هذا المنهج بعبادة القوى الطبيعية ، أو الأصنام ، واتباع الشهوات ، والطغيان في الأرض يهلك صاحبه في الدارين .

﴿ وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَى حَتَّى يَبْعَثَ فِي أُمِّهَا رَسُولا يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا وَمَا كُنَّا مُهْلِكِي الْقُرَى إِلا وَأَهْلُهَا ظَالِمُونَ ﴾ (القصص : ٥٩)

كما أن هذه النظرية لا تفسر لنا نشأة الحضارة ، واضمحلالها ، وموتها ، ولم تكشف لنا عن لغز الحضارة المصرية القديمة الذي احتار فيه المؤرخون قديماً وحديثاً.

ثانيا : النظرية السحرية :

ويعتبر المفهوم السحري في تفسير حركة التاريخ أكثر قدماً من النظرية الدينية فقبل أن يعرف البشر الآلهة كانت القبائل البدائية تعتقد بأن الطبيعة " مسكونة " بقوى وأرواح واعتقد هؤلاء الأقوام بأنهم يمكن أن يسيطروا على هذه القوى من خلال أعمال السحر ولهذا لم يكن المَلِك في عصور الملكيات الوثنية واضعاً للقانون فحسب بل كان في نظر الرعية ، مسئولا عن توفير الرخاء المادي في مملكته ، فكان ملوك مصر على سبيل المثال يضمنون شروق الشمس وفيضان النيل عن طريق ممارستهم لطقوس سحرية لا يمكن لأحد أن يمارسها سواهم ، ومن الطبيعي – بناءً على ذلك – أن يصبح الملك هو العامل الوحيد المؤثر في جميع الأحداث التاريخية وبالتالي نجد أن سجلات الملوك القدامى ما هي إلا تعبير عن نظرية الرجل العظيم في التاريخ .

واعتقد اليونانيون بأن رخاء واستقرار مدنهم لا يعود إلى الدساتير وحدها بل إلى حكمة واضعيها وهكذا كان أفلاطون يعتقد أنه بمجيء الملك الفرد ستتخلص الحياة

السياسية من أسقامها ، لأن ذلك الملك هو وحده الذي يمكنه أن يفعل ذلك ، أما بالنسبة للعصر الحديث فيقف " توماس كارليل " على رأس المنادين بنظرية " الرجل العظيم " إذ يعتقد أن التاريخ الإنساني الذي تحقق إنما هو تاريخ الرجال العظماء " (1)

والنظرية السحرية تستبعد وجود الله تعالى ورسالاته في تقدم الحياة وتعزو كل استقرار ومدنية إلى قدرات الأفراد الذين يستخدمون السحر في تسخير الطبيعة ، أو يستخدمون عبقريتهم في سياسة الناس ، والحقيقة أن اللجوء إلى تفسير الحضارة إلى استخدام أصحابها للسحر تفسير بدائي لا يتفق مع العلم ولا الدين ، فهذا ما يسميه علماء النفس التفكير الخرافي فكل إنسان يعجز عن تفسير ما يجهله يردُّه إلى السحر والأرواح ، وأحياناً كنوع من التعمية يشيع أصحاب الحضارة أن ما وصلوا إليه من تقدم علمي مذهل إنما كان عن طريق السحر ليس إلا كما فعل كهنة مصر مع هيرودوت وغيره من الأجانب غير المؤمنين بعقيدة قدماء المصريين .

والسحر الذي استخدمه المصريون في إنشاء حضارتهم هو سحر العلوم الإلهية التي أوحى الله تعالى بها إلى أنبيائه ورسله . وهذا السحر لم يبطل بموت قدماء المصريين إنما هو باق ببقاء شريعة الله تعالى .

ثالثا : التفسير الأنثروبولوجي :

وتُرْجِع هذه النظرية التقدم والتحضر للتفوق العنصري فهناك شعوب قادرة على صنع هذا التقدم وشعوب غير قادرة ، وعلى الشعوب المتحضرة أن تقهر وتضطهد وتستغل الشعوب المتخلفة " واسْتُغِلّت هذه النظرية لتبرير القهر والاضطهاد العنصري الذي يمارسه الرجل الأبيض على الزنوج والأقليات وقد أدخلت هذه النظرية الزائفة بعض الاستعارات من مبدأ " دارون " عن الانتخاب الطبيعي والبقاء للأصلح " (2)

---

(1) نفسه ص ٦ .
(2) نفسه ص ٩ .

وهذه النظرية تخالف كل الأديان السماوية الداعية إلى الرحمة والحب والتعاون بين سائر البشر وأن يرحم القوي الضعيف ويعطف الغني على الفقير .

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوباً وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴾ (الحجرات : ١٣)

وهناك نظريات أخرى لتفسير التاريخ باعتباره فرعاً للاقتصاد السياسي ، وأخرى على اعتباره علم مقارن ، وثالثة تفسيره وفقاً للماديَّة الجدلية .

وجميعها لا تُثِر من قريب أو بعيد لدور الأديان السماوية في صناعة الحضارات الإنسانية التي يجمع المؤرخون المنصفون على أنها بدأت من مصر القديمة .

الحضارة المصرية أصل الحضارات

يقول العلامة د. سليم حسن : " إن مصر هي المنبع الأوَّل الذي ظهر لنا منه كتابات مدوَّنة في الوقت الذي كانت كل ممالك العالم تقريباً تهيم على وجوهها في الغابات ، وتتيه في المجاهل والأحراش ومن هذه المَدَنيِّة المصرية اغترف العبرانيون والإغريق والآسيويون ، ومن ثمَّ تسربت إلى أوربا " (١)

ويقول د. جمال حمدان تحت عنوان السَّبْق الحضاري " مصر أم الدنيا "

" أول ما نرى حضارة مصر الزراعية الراقية نراها مع بداية عصر الأسرات (٣٢٠٠ ق.م) حين تبرز لنا في صورتها **المتطورة الكاملة** التي ترتبط في أذهاننا بمصر الفرعونية عموماً ، وبديهي أن وراء هذه اللوحة التامة تاريخاً تطوريّاً سحيقاً وتبدأ الجرثومة الأولى في هذا التاريخ في نهاية العصر الحجري القديم ، غير أن هنا بالضبط تبدأ المشكلة العلمية فكما رأينا في دراسة الأصول الأولى لتعمير مصر تبدو الأصول الحضارية الأولى غامضة بل لقد غيَّر بعض العلماء آراءهم أو حتى قد

(١) د. سليم حسن " مصر القديمة " ج١ ص (أ) الهيئة المصرية العامة للكتاب .

يناقض نفسه أحياناً من أسف أن المزيد من البحث لم يَعْن إلا المزيد من الغموض والتعقيد لا مزيد من الوضوح والبساطة " [1]

والسبب في عدم التوصل إلى أصل الحضارة المصرية أن الأبحاث أبحاث علمانية لا تهتدي بشريعة السماء .

لغز نشأة الحضارة المصرية القديمة

نظرية اليوت سميث في نشأة الحضارة المصرية

اليوت سميث أستاذ التشريح في كلية (مدرسة) القصر العيني في بداية القرن العشرين وعلى يديه تتلمذ الكثير من أطباء ذاك الجيل مثل : علي إبراهيم ، وجورجي صبحي ، وأحمد شفيق .. وكانت له هواية إلى جانب حرفته يهتم بها أكثر مما يهتم بحرفته ، بل انتهى به الأمر إلى احتراف هوايته في أواخر حياته .

وكانت هواية اليوت سميث هي دراسة تاريخ مصر من أجل دراسة تاريخ الحضارة البشرية في العالم كله عن طريق دراسة أصول الحضارة المصرية .

نقل اليوت سميث دراسة الحضارة من تعدد الأصل إلى وحدته كما سبق أن فعل داروين حين ردَّ الأحياء إلى أصل واحد فقد استطاع سميث أن يثبت أن مصر هي أصل الحضارة للعالم كله ليس لأن القدماء المصريين كانوا أذكى من سائر البشر وإنما لأن جغرافية مصر قد تفاعلت مع الإنسان المصري بما لم يتفاعل أي وسط آخر مع الإنسان فكانت النتيجة هي ظهور الحضارة في مصر .

وبهذا يعتبر اليوت سميث أحد مؤسسي نظرية "مصر الأم " أي أن الحضارة المصرية هي الأم التي وُلدت منها كل حضارات العالم . ولهذا الرأي الجديد مدرسة

([1]) د. جمال حمدان " شخصية مصر " ج٢ ص ٣٦٨ دار الهلال .

obeikandl.com

يعد تلاميذها بالألوف ، ولا تقل المؤلفات في تأييد هذا الرأي عن ثلاثمائة كتاب في لغات مختلفة . (1)

وبؤرة نظرية سميث في نشأة الحضارة المصرية القديمة تنحصر في أن الإنسان البدائي الذي كان يجمع الطعام جمعاً من الغابات رأى في مصر على توالى السنين أن فيضان النيل يَعُم الوادي في مواعيد معينة كل عام ، حتى إذا انحسر الفيضان انطلقت النباتات وكست الأرض بالخضرة النضرة التي كان يجد فيها طعاماً كما كان يجد فيها صيداً لوفرة الحياة الحيوانية . ففهم بالتكرار أن الماء هو أصل الحيوية ، وهو أصل النبات ؛ فشرع يحتجز الماء هنا ويطلقه هناك . ويضبط الري وهذه كانت الهندسة الأولى .

وظهر عندئذ التخصص : مهندسون ينظِّمون الري ، وفلكيون يعيِّنُون الأوقات الزراعية ، وهؤلاء لا يزرعون وإنما يعيشون بالفائض من المحصول ، وهنا تنشأ الحكومة التي يرأسها مهندس أو فلكي تُنسب إلية صفات الألوهية لأنة يدرى ما لا يدريه غيره من الهندسة أو الفلك . وهو يعيش كأنة مَلِك بل هو مَلِك يطاع فإذا مات أصبح قبره معبداً .

وأرض مزروعة تحتاج إلى حدود تُحترَم من الجيران ، وإلى أوصاف تعين الزراعة ، وإلى محكمة تعاقب المعتدى على الحدود أو المحصول ،وإلى صنَّاع يصنعون الآلات الزراعية . وكل هؤلاء لا يزرعون فنشأت من ذلك الحكومة والتجارة والفنون وهذه هي الحضارة .

ويجب ألا ننسى أن كلمات " القمح " و " البُرُّ " و " الحنطة " هي جميعا فرعونية. وذلك لأن المصريين القدماء هم الذين زرعوها لأول مرة في التاريخ وعينوا أسمائها ولعله كانت هناك فروق بين بذور القمح أدت إلى تعدد هذه الأسماء .

(1) سلامة موسى " هؤلاء علموني " دار المعارف " ص ١٥٦ .

obeikandl.com

والزراعة هي الأساس الأول الذي نبتت عليه الحضارة الأولى . أما قبل الزراعة فلم يكن هناك غير التجوال للبشر ، بلا ثقافة غير المعارف القليلة الخاصة بالصيد والتقاط الثمار واقتلاع الجذور .

فالزراعة أوجدت الاستقرار بدلاً من التجوال ، وبسطت الآفاق لثقافة الفنون والعلوم ونظام الحكم . [1]

ويفسر اليوت سميث ظهور الأفكار الدينية والدين في مصر القديمة بنشأة القرية فعلى حين كان الرُّحَّل يتركون الميت موضع موته فقد استحال ذلك في القرى لأسباب صحية واقتصادية فكان لابد من دفن الموتى بعيداً في الصحراء ، ولكن الصحراء " فريجيدير " طبيعي ممتاز حفظ الأجسام فَخُيِّل لعقلية المصري البسيط أن الميت لم يمت حقيقة ما دام جسده كما هو ، ومن ثَمَّ اتجه إلى الاهتمام به في حياته الأخرى يضع الطعام والشراب والأدوات معه في القبر ، وذلك مع التحنيط زيادة في حفظه ، ومع الاهتمام " بمساكن " الموتى هذه ، كان تشييد المقابر التي تحولت إلى مصاطب ثم أهرامات .. الدين وعقيدة الحياة الأخرى وحفظ الموتى إذن أدَّت إلى دفع النِّجارة إلى (صنع الأكفان) وإلى فن البناء (المقابر بأشكالها) كذلك فإن إدراك العلاقة بين النهر والزراعة خلقت الحساب والتقويم حين ربطوا بين الفيضان وبين الشمس والنجوم وحيث الشِّعْرَى اليمانية تعين على بدء الفيضان ، وهنا سلبت الشمس الأهمية من القمر الذي ربما كانوا يربطون بينه وبين النهر في السابق مثلما سلبت من النهر قدسيته فيما بعد فأخذت عبادة الشمس وأشعتها تحل محل عبادته ذلك سيناريو نشأة الزراعة والحضارة والدين كما يصوره اليوت سميث . [2]

وإلى هذا تفسِّر لنا نظرية سميث نشأة الحضارة الأولى والدين في مصر ، وبقي علينا أن نعرف كيف خرجت هذه الحضارة من مصر إلى سائر العالم ؟

([1]) سلامة موسى " هؤلاء علموني " دار المعارف " ص ١٥٧ ، ١٥٨ .

([2]) د. جمال حمدان " شخصية مصر " ج٢ ص ٣٩٦ مرجع سابق .

ويجيبنا سميث عن هذا السؤال فيقول : إن بعض البعثات المصرية كان ينقطع بها الطريق فلا تعود . بل تبقى في قُطْر ناءٍ بين شعب غريب بدائي لا يعرف الزراعة فتنقل هذه البعثة إلى هذا الشعب الفنون المصرية وتعيش هناك إلى الأبد .

ومن هنا نعرف لماذا وُجد تمثال الرب آمون في روسيا بالقرب من جبال أورال . ولماذا عبدوا رب الشمس في المكسيك كما عُبد في مصر ولماذا حُنطت الجثث في أمريكا على الطريقة المصرية . ولماذا وُجدت الأهرام في إيطاليا والسودان . ولماذا توجد في اللغة الفنلندية كلمات فرعونية ولماذا ترجع أبجدية الخطوط في جميع اللغات إلى الهيروغليفية المصرية . ولماذا يعم التقويم المصري أوربا بل العالم كله إلى الآن . ولماذا بُنيت المعابد وذُكرت الأساطير على الطريقة المصرية. بل لماذا يوصف إمبراطور اليابان بوصف الفراعنة " ابن الشمس" أي "ابن رع". وأخيراً لماذا تكون الحبوب الأولى التي يأكلها الإنسان ولا يزال يأكلها مصرية الاسم مثل قمح ، وبُرّ ، وحنطة .

وشارة الكاهن المصري القديم ذلك الثعبان الذي كان يحيط بالرب " رع " والثعبان لا يزال شارة الأسقف القبطي ، وهو يُرى على رأس عصاه إلى الآن .

ولما كان الكاهن المصري طبيباً وساحراً أيضا فإن الثعبان هو الآن شارة الطب ، وفي اللغة العربية لا يزال معنى الطب هو السحر و الكهانة .

واذْكُرْ البقرة هاتور (حتحور) المصرية واذْكُرْ تقديس البقرة في الهند . واذْكرْ أيضاً ملوك أفريقيا المتوحشين ، وكيف يضربون الجهات الأربع بالقوس كما كان يفعل الفراعنة عندما كانوا يتولون العرش رمزا للاستيلاء على العالم .

وكذلك رجَّح اليوت سميث أن معظم الأسر المالكة في العالم ترجع إلى أصل فرعوني ، وذلك لأن كل بعثة كانت تخرج من مصر لجلب المواد والأطياب للتحنيط

كان يرأسها أحد أفراد أسرة فرعون . فإذا لم ترجع البعثة صار هذا الشخص ملكاً على البقعة التي تحتلها بعثته .حتى إذا استقر العرش الجديد خرجت بعثات أخرى .. إلخ[1]

يعلق جمال حمدان على نظرية سميث فيقول :

" وهذه النظرية الكاسحة – وكاسحة هي بالتأكيد – لقيت رواجاً كبيراً واكتسحت الميدان العلمي في حين ما ولكن الانتقادات لم تلبث أن وجهّت إليها بعنف وكانت أهم هذه الانتقادات ثلاثة :

أولاً : إن القول بأن كل أركان وعناصر وأفكار الحضارة برمتها قامت في موطن واحد هو مصر قول بالغ التطرف والمغالاة .

ثانياً : إن النظرية تنفي إمكان إعادة أي اختراع أو فكرة مرة أخرى مما يتنافى مع وحدة العقل البشري وحتى مع قانون الصُدَف .

ثالثاً : استحالة وصول الآثار الحضارية من مصر إلى المناطق البعيدة كأطراف القارات كالعالم الجديد مثلا بسبب عامل البعد الجغرافي السحيق " [2]

وللباحث السويدي " أريك فون دانيكن " عدة أبحاث أثارت ضجَّة عالمية عند نشرها أشهرها " العودة إلى الكواكب ، والهابطون من السماء ، وألغاز الحضارات " لقد حاول في تلك البحوث إثبات أن جميع الحضارات البشرية وما يحيط بها من الغاز هبط بها كائنات أو أقوام من كواكب أخرى أرقى عقلاً وعبقرية ومعرفة وحضارة ، وأنهم هم الذين بنوا الهرم الأكبر ليكون وسيلة اتصال بينهم وبين الأرض ، كما وضعوا أسس الحضارة الفرعونية التي نشأت متكاملة ومتطورة بما حوته من معجزات في علوم : الفلك والرياضيات ، والطب ، والهندسة ، والفنون والكتابة . " [3]

([1]) سلامة موسى " هؤلاء علموني " دار المعارف " ص ١٥٩ ، ١٦٠ .
([2]) د. جمال حمدان " شخصية مصر " ج٢ ص ٣٩٨ مرجع سابق .
([3]) د. سيد كريم " لغز الحضارة المصرية " ص ١٩٣ الهيئة العامة للكتاب .

obeikandl.com

ولقد توصل دانيكن إلى آرائه بعد دراسة الوثائق المستندات التاريخية لقدماء المصريين ، وبرديات كتاب الموتى .

وإذا كان المؤرخون فشلوا في الاهتداء إلى نشأة الحضارة المصرية النشأة الصحية فإنهم يكادون يجمعون على أن الحضارة المصرية هي أم الحضارات ولقد انتشرت الحضارة من مصر إلى سائر البلدان الأخرى " إن الانتشار الحضاري من مصر في حدود إقليمية معينة هو حقيقة تاريخية لا تقبل الجدل . " [1]

المصريون القدماء وفكرة البعث والخلود

وكما عجز المؤرخون العلمانيون عن تفسير نشأة الحضارة المصرية عجزوا أيضاً عن تفسير معرفة المصريين القدماء فكرة البعث والخلود مبكراً فقد كانوا أول المتدينين.[2]

ودونك تفسيرهم معرفة المصريين القدماء فكرة البعث والخلود .

حاول بعض المؤرخين أن يربط معرفة المصريين للبعث والخلود بالبيئة المصرية الجافة : الرمل والشمس على افتراض أن المصري الأول كان يدهش حين يرى أجساد أجداده المدفونة في بطن الصحراء في حالة حفظ جيدة فجعله يعتقد في حياة خالدة بعد الموت وبالتالي آمن بالبعث !

وردَّ آخرون فكرة الخلود إلى إحساس المصريين ببهجة الحياة في بيئتهم الرخيَّة الرغدة وبالتالي تعلقهم بها إلى حد إسقاطها على حياة أخرى بعد الموت ، وتمديدها فيها ، ومن ثم كان إعدادهم الغريب لها ابتداءً من التحنيط إلى مراكب الشمس إلى أثاث المقابر وأطعمتها !

---

(1) د. جمال حمدان " شخصية مصر " ج٢ ص ٤٠٠ دار الهلال

(2) نفسه ص ٤٢٨ .

obeikandi.com

كما فسَّر البعض ظهور فكرة الخلود عند قدماء المصريين بوجود الفراغ الآمن الذي أعان عليه الموقع الجغرافي والغنى الحافز والترف لذا فكروا في الخلود ولو كانت مصر قطعة مكررة من الصحراء المشابهة تحيا حياة محرومة متنقلة ما كانت هذه الحياة تستحق الحرص عليها والسعي إلى تخليدها ! (١)

أما " ول ديورانت " فيفسر نشأة الدين فيقول : " أدرك الإنسان أن حرارة الشمس هي العلَّة الرئيسية فيما تُدرُّه عليه الأرض من خيرات عندئذ انقلبت الأرض في عين البدائيين آلهة تخصبها الأشعة الحارة ، وعبد الناس الشمس العظيمة لأنها بمثابة الوالد الذي نفخ الحياة في كل شيء حي ، ومن هذه البادية الساذجة هبطت عبادة إلى العقائد الوثنية عند الأقدمين ولم يكن مثير من الآلهة فيما بعد سوى تشخيص للشمس وتجسيد لها " (٢)

ويختم جمال حمدان هذه الآراء قائلاً : الواقع إن هذه الديانة كانت ديانة جغرافية محلية أو بيئية إلى حد بعيد فقد بدأت ديانة طوطمية كديانات أفريقيا البدائية الحالية بل يجزم إليوت سميث أن مصر هي الوحيدة في العالم التي تساعد فيها الظروف البيئية على خلق الطوطمية غير أنها لم تلبث أن أصبحت أيضا ديانة استحيائية تكاد ترى الحياة في كل عناصر الطبيعة .

ومن هنا تعددت الآلهة بالمئات والمئين معظمها مستمد من عناصر ومعالم البيئة المحيطة من حيوان ونبات إما لكثرتها أو لندرتها .

ويختم كلامه في هذا الموضوع فيقول : إذا كانت الديانة الوثنية المصرية القديمة تعد أكثر بدائية نوعاً عن مثيلتها الإغريقية مثلاً فقد كادت مصر الفرعونية من ناحية

(1) د. جمال حمدان " شخصية مصر " ج٢ ص ٤٢٨ دار الهلال .
(2) ول ديورانت " نشأة الحضارة " ج١ ص ١٠٣ لجنة التأليف والترجمة والنشر .

obeikandl.com

أخرى تتوصل فيما بعد إلى إرهاصات التوحيد (إخناتون) بقدر وكادت تكون هي عِرَاق إبراهيم الأولى في العالم قبل الرسالات " [1]

وهكذا جارَى عالمنا العظيم جمال حمدان – وكذا السواد الأعظم من المؤرخين المصريين – المؤرخين الغرب في نشأة الحضارة المصرية ، وفكرة البعث والخلود، ويجب أن نلتمس للمؤرخين المصريين العذر في تقليدهم لأساتذتهم الغربيين؛أليس هؤلاء الغربيون هم الذين اكتشفوا حجر رشيد ، وفكُّوا رموزه ، وأوَّل من أنطق الآثار المصرية القديمة بعد صمت دام آلاف السنين ،وأوَّل من حفر ونقَّب عن المقابر والمعابد والتماثيل المصرية القديمة ورمَّموها ، وأوَّل من ألفَّ الكتب العلمية المتخصصة في الحضارة المصرية واللغة المصرية القديمة .

يقول د. سليم حسن : " أما أكبر عالم خدم التاريخ المصري القديم فهو الأستاذ "برستد" [2] الذي جمع كل المتون التاريخية واستخلص منها تاريخاً لمصر يعتبر رغم قدمه من أكبر المراجع في التاريخ المصري القديم إلى الفتح الفارسي ، أما المصريون فلم يقوموا بدراسة لغة بلادهم وآثارهم إلا منذ عهد قريب وعلى رأسهم المرحوم أحمد كمال باشا . " [3]

لكن ما يؤخذ على المؤرخين المصريين – مسلمين ومسيحيين – حقّاً هو تسليمهم بالنظريات الأجنبية في نشأة عقيدة البعث والخلود وغضهم الطرف عما جاء في الكتب السماوية من عقائد دينية .

([1]) د. جمال حمدان " شخصية مصر " ج٢ ص ٤٢٨ دار الهلال .

([2]) برستد هو جيمس هنري برستد (١٨٦٥–١٩٣٥م) عالم آثار ومؤرخ وعالم مصريات أمريكي الجنسية أهم إنجازاته كتابه الضخم Egypt, Historical Documents Ancient Records of. الذي ضمنه أكثر من عشرة آلاف وثيقة مصرية قديمة قام بترجمتها ونشرها فى مجلدات أربع، وأخيرا نشرت بالعربية وصدرت في أربع مجلدات أيضا بعنوان "سجلات تاريخية من مصر القديمة " .

([3]) د. سليم حسن " مصر القديمة " ج١ ص ١٣٩ الهيئة المصرية العامة للكتاب .

obeikandi.com

يقول مهدي مصطفى في تقديمه لكتاب " الدين في مصر القديمة " للكاتبة أبكار السقاف : " وقعت النخبة تحت سيطرة مفاهيم الآخر ، خاصة بعد ذيوع وانتشار مدارس التنوير الأوربية ، فما كان من تلك النخبة – في البداية – إلا أن قلَّدت المناهج الأوربية وأخذت عنها فجاءت بعض أفكارها مشوشة وتابعة إلا القليل النادر منها نجا من تلك المحرقة وظلَّ " مسكوتاً عنه " ولم ينتشر ولم يدخل في النسخ العام."(1)

سر نشأة الحضارة المصرية

إن العلمانيين من المؤرخين ينطلقون من مُسَلَّمة يبنون عليها أفكارهم ومعتقداتهم وهذه المسلمة هي أن الكفر وعبادة قوى الطبيعة أو عبادة الطوطم (2) هي الأصل وأن الرسالات السماوية ما عرفتها البشرية إلا بعد آلاف السنين من الخليقة .

وأن الحضارة المصرية التي ولدت كاملة النمو إنما هي من صنع الطبيعة ، أو من صنع الملوك السحرة ، أو من صنع كائنات من كواكب أخرى أرقى عقلاً وعبقرية ومعرفة وحضارة !!

ولم يهتم الباحثون بربط الرسالات السماوية بالوثائق ، والآثار التي تؤكد أن أنبياء الله عليهم السلام هم الذين بنوا هذه الحضارة بواسطة **العلوم الإلهية التي أمدهم الله تعالى بها ، لكي يعبدوا الله تعالى بتعمير أرضه ، كما أمدهم بالعقيدة والشريعة ليعبدوه تعالى وحده ويقيموا شرعه .**

ويستنكر الكثيرون هذا القول ، ويتساءلون في دهشة :

---

(1) " الدين في مصر القديمة " إبكار السقاف تقديم مهدي مصطفى . العصور الجديدة ص ٨ .

(2) الطوطم حيوان يرتبط باسم العشيرة عند الشعوب البدائية ، وبخاصة أهالي استراليا الأصليين ، ويعتبرون لحمه محرما على أفرادها لاعتقادهم أنهم انحدروا منه ، وبعض العشائر تتخذ طواطمها من النباتات أو الكائنات المادية ، أو حتى من الظاهرات الطبيعية . " الموسوعة الثقافية " ص٦٤٣ دار الشعب

obeikandl.com

هل كان لدى المصريين القدماء كتب سماوية منزَّلة من عند الله كالتوراة والإنجيل والقرآن ؟!!

إن المصريين القدماء يؤكدون ذلك بل ويذكرون أن كل العلوم التي أنشئوا بها حضارتهم قد جاءتهم وحياً من السماء في صحف مقدسة .

يذكر د. أحمد بدوي في كتابه " تاريخ التربية والتعليم في مصر " أن علْم قدماء المصريين – في اعتقادهم – مَرْجعه إلى السماء ، جاء به رُسُل من حكماء الماضي، وهو مدخر في الصحف يتناقله الناس جيلاً بعد جيل "

ويذكر د. عبد العزيز صالح : " رأى المتدينون – المصريون القدماء – في التَّزوُّد من مناهل العلم والعمل بهَدْيها نوعاً من التعبد في الدنيا ؛ فكان الداعي إلى دراسة هذه العلوم يعتبر نفسه داعياً إلى أقوال الرب . (1)

ونسب كتاب الموتى (برديات الكتاب المقدس للحكيم آني) بناء الهرم الأكبر الذين أطلق عليه اسم (بيت الأماكن الخفية) إلى الإله تحوت إله المعرفة وكاتم الأسرار الإلهية وحارس كلمات العدالة والحق . ناقل الكلمة والحرف وقياس الوقت والزمن ، ليكون معبداً وهيكلاً للخالق الأعظم وينقل منه رسالته إلى البشر ، وهو ما فسر للعلماء والباحثين " لغز الهرم الأكبر " فيما يختص بالغرض الذي بني من أجله ." (2)

والإله " تحوت " ما هو إلا نبي الله " إدريس " عليه السلام أو " هرمس " عند اليونان كما سنبين بالأدلة القاطعة في الفصل التالي .

والسبب في خطأ كثير من علماء المصريات في تفسير نشأة الحضارة المصرية القديمة يرجع إلى الخطأ في الترجمة عن اللغة المصرية القديمة فلو ترجمت الوثائق ترجمة صحيحة عن الأصل الذي كتبت به لأكَّدت أن ما أتت به الحضارة المصرية وغيرها من الحضارات إنما هو من المعجزات التي أيد الله تعالى بها أنبياءه ورسله،

(1) د. نديم السيار " قدماء المصريين أوَّل الموحدين " الطبعة الثانية ص ١٩٥ ، ١٩٦
(2) د. سيد كريم " لغز الحضارة " ص ١٩٣ الهيئة المصرية العامة للكتاب .

obeikandi.com

ومما أوحى لهم به من علوم علموها للناس ليصلحوا بها حياتهم كما علموهم من هدى الدين ما يصلح آخرتهم .

ضاعت الحقيقة ، ولم يعد هنالك من يحكي عن عقائد المصريين القدماء وعبادتهم سوى بعض الرحَّالة والمؤرِّخين بكل ما فيها من زيف وجهل وخرافات .

قال المؤرِّخ شمبليون : " وعندي أنه لا يعتد بما قاله بعض أهل التاريخ من الأغراب الذين تطفَّلوا على محافل مصر فنقلوا من أخبار عياداتهم كلاماً اكتفوا في نقله بالظاهر دون الحقيقة لجهلهم بعادات المصريين ولغتهم ، ومبلغ علمهم بالديانات الصحيحة "

كما ذكر مترجم كتاب " الحياة الاجتماعية " لبتري : " لقد تعرَّضت حياة الشعب المصري في الأزمان الغابرة لكثير من المسخ والتشويه على يد المؤرِّخين الأجانب وقد ظلَّت هذه الصورة المشوَّهة والروايات الكاذبة التي أذاعها الجُهَّال والمغْرضون يرددها الناس مئات السنين . "

وهكذا شاءت الأقدار ألا يبقى عن عقائد مصر القديمة سوى كتب أولئك المؤرِّخون القدماء بكل ما فيها من خرافات وجهل وأكاذيب يقرأها الناس فيسخرون أو يشمئزُّون ، ولا يعرفون عن مصر القديمة وأهلها سوى أنهم كانوا كَفَرة مشركين عُبَّاد أوثان وأصنام!!! (١)

يقول د. سليم حسن : " إن من يعرف اللغة المصرية القديمة وصعوبة فهمها واحتمال اللفظ من المعاني يلتمس العذر لعلماء الآثار في اختلافهم تعدد آرائهم وتباين مذاهبهم موضوعات كثيرة " (٢)

---

(1) د. نديم السيار " قدماء المصريين أوَّل الموحدين " الطبعة الثانية ص ٤

(2) د. سليم حسن " مصر القديمة " ج١ ص (ب، ج) الهيئة المصرية العامة للكتاب .

وإن المرء ليعجب أن ينسب العلماء لامحوتب الألوهية وينفوا عنه النبوَّة ، نعم إن ما عجز العلماء عن تفسيره في منجزات الحضارة المصرية القديمة إنما هو من ثمار العلوم المقدَّسة التي أوحى الله تعالى به لرسله ليعلموها أقوامهم أو من معجزات السماء التي أيَّد الله تعالى بها أنبياءه ورسله ، كما خلق عيسى من الطين كهيئة الطير ونفخ فيه فكان طيراً بإذن الله ، وأبرأ الأكمه والأبرص وأحيى الموتى بإذن الله .

﴿ وَرَسُولاً إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنِّي قَدْ جِئْتُكُم بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ أَنِّي أَخْلُقُ لَكُم مِّنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ اللّهِ وَأُبْرِىءُ الأَكْمَهَ والأَبْرَصَ وَأُحْيِي الْمَوْتَى بِإِذْنِ اللّهِ وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ (آل عمران : ٤٩)

ترى ولو لم يخبرنا الله تعالى بمعجزات عيسى عليه السلام هل كنا سنصدق بها إن قرأناها في مخطوطات قديمة كتبها مَن شاهد هذه المعجزات ؟!

هل كنا سنصدق أن بشراً يصنع هذا ؟

في الغالب كنا سنسارع في تكذيب هذه الروايات لأنها تتعارض مع عقيدة التوحيد التي تؤكد أن الله هو الذي يحيي ويميت ﴿ الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ وَالَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِ ﴾

(الشعراء : ٧٨ – ٨١) .

ولا يفكر واحد منا أن يجعل هذه العجائب معجزات أيَّد الله تعالى بها أنبياءه ورسله ، والفرق بين معجزات الأنبياء التي أخبرنا الله تعلى بها ومعجزات الحضارة المصرية القديمة أن معجزات الأنبياء لا دليل عليها إلا إخبار القرآن الكريم بها ، بعكس معجزات الحضارة المصرية التي مازالت قائمة تتحدى أن يأتي أحد بمثلها أو حتى

يفك لغزها إنه تحدي من الله تعالى لكل البشر كما تحداهم بأن يأتوا بسورة من القرآن { قُل لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَن يَأْتُواْ بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لاَ يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا } (الإسراء : ٨٨)

والحقيقة أن آدم هو أول البشر وهو أول نبي مرسل ، فالله العلي القدير لم يخلق الناس عبثا ولم يتركهم سدى .

﴿ أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لا تُرْجَعُونَ ﴾(المؤمنون : ١١٥)

أي مهملين لا ثواب لكم ولا عقاب عليكم .

وقوله تعالى: ﴿ أَيَحْسَبُ الإِنسَانُ أَن يُتْرَكَ سُدًى ﴾ (القيامة: ٣٦)

لقد أمر الله تعالى الإنسان بعبادته وحده لا شريك له .

﴿ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنسَ إِلا لِيَعْبُدُونِ ﴾(الذاريات : ٥٦)

لذا أرسل في كل أمة رسولاً بالدين الحق يبشر به من آمن بالله بالجنة، ورضوان من الله ، وينذر من كفر بالنار وغضب الجبار .

{ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلا خلا فِيهَا نَذِيرٌ }(فاطر : ٣٤)

﴿ مَّنِ اهْتَدَى فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَلاَ تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولاً ﴾ (الإسراء : ١٥)

ولقد كلَّف الله تعالى الناس بمهمتين هما : إخلاص العبادة لله وفق ما شرع وتعمير كونه بالعلم النافع والعمل الصالح .

﴿ اعْبُدُواْ اللّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَـهٍ غَيْرُهُ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ الأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَاسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُواْ إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُّجِيبٌ ﴾ (هود : ٦١)

obeikandi.com

وكما أرسل الله تعالى الأنبياء بشريعة تعلم الناس كيفية عبادة الله تعالى ، أرسل الأنبياء بالعلوم المقدسة التي تعلم الناس كيف يعمرون الأرض .

﴿ وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاء كُلَّهَا ﴾ (البقرة : ٣١)

﴿ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ عَلَّمَ الإنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴾ (العلق : ٤، ٥)

فالله تعالى مصدر كل علم نافع عرفه البشر فعلم آدم الأسماء كلها ، علمه أسماء الذوات ، وأفعالها ،مكبرها ومصغرها ،كما أشار إليه ابن عباس رضي الله عنهما "(١)

وعلَّم الله تعالى إدريس عليه السلام – نبي المصريين وأوَّل الأنبياء والرسل بعد آدم – الكتابة بالقلم ، وحياكة الثياب ، وعلم النجوم ، والحساب وغيرها مما كان سبباً في النشأة الحضارة المصرية كاملة متطورة .

أما عن كون إدريس أوَّل وأقدم الأنبياء فدونك هذه الشذرات أقوال كبار العلماء والمفسرين :

يقول ابن خلدون في مقدمته : " إدريس هو أقدم الأنبياء . "

ويقول القرطبي في تفسيره : " كان إدريس أوَّل من أُعْطي النبوَّة . "

ويقول ابن سعد في طبقاته : " إدريس أوَّل من أُعْطي النبوة من ولد آدم "

يقول الإمام القرطبي : " إدريس عليه السلام أول من خط بالقلم وأول من خاط الثياب ولبس المخيط ، وأول من نظر في علم النجوم والحساب وسيرها. وسمي إدريس لكثرة درسه لكتاب الله تعالى. وأنزل الله تعالى عليه ثلاثين صحيفة " (٢)

وأما عن كون إدريس مصري ، ومرسل من الله إلى المصريين فدونك شذرات من أقوال العلماء في ذلك :

(1) ابن كثير البداية والنهاية المجلد الأول ص ٧٨

(2) تفسير القرطبي لقوله تعالى { واذكر في الكتاب إدريس إنه كان صديقا نبيّاً }

يقول القرماني في " إخبار العلماء بأخبار الحكماء " : " إدريس عليه السلام كان نبيّاً عظيماً وقد ولد بمصر " .

وفي دائرة معارف البستاني : " وأمَّا ترجمة إدريس على قول العرب فهي أنه كان نبيّاً عظيما ولد بمصر " .

ويقول الألوسي في تفسيره " روح المعاني " : " وكان إدريس قد ولد بمصر "

ويذكر ابن إياس في " بدائع الزهور " تحت عنوان " ذكر من كان بمصر من الحكماء في أوَّل الدهر " : " قال الكندي : كان بمصر من الحكماء إدريس وقد جمع بين النبوَّة والحكمة . " (١)

وحتى العلماء والمؤرخون الذين ذكروا أن إدريس ولد ونشأ في بابل ذكروا أنه هاجر إلى مصر ونشر فيها دين الله وعلومه المقدسة .

يقول الشيخ عبد الوهَّاب النجَّار في " قصص الأنبياء " : " اخْتُلف في مولد إدريس ونشئه فقالت فرقة : ولد بمصر وسمُّوه هرمس الهرامسة ومولده بمنف وهو عند العبرانيين خنوخ وعُرِّب أخنوخ ... وقالت فرقة أخرى إن إدريس وُلد ببابل وبها نشأ ولما كبر إدريس آتاه الله النبوة فنهى المفسدين من بني آدم عن مخالفتهم شريعة آدم وشيث فأطاعه أقلهم وخالفه جُلُّهم فنوى الرحيل عنهم وأمر من أطاعه منه بذلك .

وأقام إدريس ومن آمن معه بمصر يدعو الخلائق إلى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وطاعة الله عز وجل ، وتكلم الناس في أيامه باثنين وسبعين لساناً وعلَّمه الله تعالى منطقهم ليُعَلِّم كل فرقة منهم بلسانهم ، ورسم لهم تمدين المدن ، وجمع الله له طالبي العلم بكل مدينة فعرَّفهم السياسة المدنية وقرر لهم قواعدها فبنت كل فرقة من الأمم مدناً في أرضها فكانت عدَّة المدن التي أُنْشئت في زمانه مائة مدينة وثمانياً وثمانين أصغرها الرها . وعلَّمهم العلوم . وهو أوَّل من استخرج الحكمة وعلم النجوم فإن الله عز وجل أفهمه أسرار الفَلَك وتركيبه ونقط اجتماع الكواكب فيه وأفهمه عدد

(١) نقلاً عن د. نديم السيار " قدماء المصريين أوَّل الموحدين " ص ١٨٧ .

obeikandl.com

السنين والحساب ولولا ذلك لم تصل الخواطر باستقرائها إلى ذلك ، وأقام للأمم سُنناً في كل إقليم سُنَّة (طريقة أو منهج) تليق بأهلها ، وقسَّم الأرض أربعة أرباع على كل ربع ملكاً يسوس أمر المعمور من ذلك الربع وتقدم إلى كل ملك بأن يلزم أهل كل ربع بشريعة الله التي تتمثل في توحيد الله وعبادته وتخليص النفوس من العذاب في الآخرة بالعمل الصالح في الدنيا ... ووعد أهل ملَّته بأنبياء عدة يأتون من بعده ، وعرَّفهم صفة النبي فقال : يكون بريئاً من المذمَّات والآفات كلها كاملاً في الفضائل الممدوحات لا يقصِّر عن مسألة يُسأل عنها مما في الأرض والسماء ومما فيه دواء وشفاء من كل ألم ، وأن يكون مذهبه ودعوته المذهب الذي يصلح به العالَم . " (١)

إذن كانت نشأة الحضارة المصرية القديمة نشأة دينية ، وأن أول علوم عرفها البشر علوم ربانية ، وإنجازات المصريون القدماء الباهرة هي معجزات نبوية .

وهذا ما تؤكده الدراسة المتأنية لتاريخ هذه الحضارات ، وآثارها الخالدة ، ونصوص الدين المعجزة .

﴿ مَّا فَرَّطْنَا فِي الكِتَابِ مِن شَيْءٍ ﴾ (الأنعام : ٣٨ ،٣٩)

***

(1) الشيخ عبد الوهاب النجار " قصص الأنبياء " دار التراث ص ٤٠ ، ٤١ .